المحاضرة رقم 03: عبد السلام المسدي

عبد السلام المسدي من مواليد 26 يناير1945 ، صفاقس أكاديمي وكاتب ودبلوماسي ووزير التعليم العالي في تونس .من أهم الباحثين في مجال اللسانيات واللغة.

يُعدُّ واحدا من النقاد القلائل الذين ترسخت أسماؤهم في حركة النقد الأدبي ليس في تونس فقط بل في العالم العربي، فعلى مدار مسيرته الطويلة قدم عطاءً وافراً أسهم في ثراء الحركة النقدية العربية، وهو بالإضافة إلى هذا له إسهامات في العمل السياسي والدبلوماسي والأكاديمي؛ حيث يعمل أستاذ اللسانيات في الجامعة التونسية، كما تولى عدة مناصب سياسية من بينها توليه حقيبة التعليم في تونس.

له العديد من **المؤلفات منها**: الأسلوبية والأسلوب (1977)، التفكير اللساني في الحضارة العربية (1981)، النقد والحداثة (1983)، قضية البنيوية: قضايا ونماذج (1991).

1/ في تحديد مفهوم البنيوية:

إذا ما عدنا إلى الدلالة اللغوية للفظ "بنية" وجدناها مشتقة من الفعل الثلاثي "بنى"، وهي في المعجم الوسيط "هيئة البناء، ومنه بنية الكلمة: أي صيغتهاأما من حيث الدلالة الاصطلاحية، فنجد "معجم المصطلحات الأدبية" يقدم التعريف التالي: "البنية نظام تحويلي، يشتمل على قوانين، ويغتني عبر لعبة تحولاته نفسها، دون أن تتجاوز هذه التحولات حدوده، أو تلتجئ إلى عناصر خارجية. وتشتمل البنية على ثلاثة طوابع، هي: الكلية/ التحول/ التعديل ـ الذاتي. وهي مفهوم تجريدي لإخضاع الأشكال إلى طرق استيعابها." وهو تعريف لا يخرج عن المفهوم الذي تورده أغلب الدراسات، وقد وضعه "جون بياجيه" للبنية، حيث اعتبرها "نسقا من التحولات يحتوي على قوانينه الخاصة، علما بأن من شأن هذا النسق أن يظل قائما ويزداد ثراء بفضل الدور الذي تقوم به هذه التحولات نفسها، دون أن يكون من شأن هذه التحولات أن تخرج عن حدود ذلك النسق أو أن تستعين بعناصر خارجية، وبإيجاز فالبنية تتألف من ثلاث خصائص هي: الكلية/ التحولات/ الضبط الذاتي."

وهكذا، يظهر أن البنيوية Structuralisme تنسب إلى مصطلح بنية Structure، فالغربيون يروا أنها "مشتقة من الأصل اللاتيني Stuere الذي يعني البناء أو الطريقة التي يقام بها مبنى معين".

2/ سياق ظهور المنهج البنيوي ومصادره:

لا يمكن فهم البنيوية باعتبارها اتجاها فكريا وفلسفيا دون تحديد السياق العام الذي تشكلت فيه، ذلك أن الفترة التي ظهرت فيها تميزت بحضور تيارات لها مكانتها المتميزة في الفكر والمجتمع، من قبيل الماركسية والوجودية والظاهراتية .. ومن ثمة "لم ينبثق المنهج البنيوي في الفكر الأدبي والنقدي وفي الدراسات الإنسانية فجأة، وإنما كانت له إرهاصات عديدة تخمرت عبر النصف الأول من القرن العشرين في مجموعة من البيئات والمدارس والاتجاهات المتعددة والمتباينة مكانا وزمانا"، وهو ما يضعنا أمام مصادر متنوعة لهذا المنهج، منها على وجه الخصوص:

أ- اللسانيات:

ارتبطت اللسانيات ـ أو ما يطلق عليه أيضا علم اللغة ـ بالعالم اللغوي السويسري "فردناند دي سوسير" في كتابه "دروس في اللسانيات العامة" والذي نشره طلبته عام 1916 بعد وفاته، وذلك من خلال دعوته

إلى دراسة اللغة دراسة علمية وصفية في ذاتها ومن أجل ذاتها، عبر البحث في نظامها ونسقها، وتمييزه بين اللغة والكلام وبين الدياكرونية والسانكرونية، واعتباره اللغة تمثل نظاما من العلامات تنبني على دال ومدلول بينهما علاقة اعتباطية. ومن ثمة تميزت البنيوية بتحركها " على أساس من النموذج اللغوي عند "دي سوسير"

ب ـ النقد الجديد:

وقد برز في إنجلترا في العشرينات والثلاثينيات والولايات المتحدة الأمريكية خلال أربعينات وخمسينات القرن العشرين، مع عدد من النقاد الذين دعوا إلى الاهتمام بالمكونات اللغوية للنصوص الأدبية، فذهب "عزرا باوند" إلى أن الشعر هو نوع من الرياضيات، وأنه لا حاجة فيه للمضمون، وإنما المهم هو القالب الشعري كما تصور ذلك "هيوم"، بل إنه لا هدف للشعر سوى الشعر ذاته حسب ما قدمه "جون كرو رانسوم"

ج ـ الشكلانيون الروس:

تعتبر الأفكار التي قدمتها "مدرسة الشكلانيين الروس في العقدين الثاني والثالث من القرن العشرين، حين ترجم "تزيفتان تودوروف" نصوصهم إلى الفرنسية، أحد أبرز مصادر المنهج البنيوي. ذلك أنها ظهرت في روسيا خلال الفترة الممتدة من 1915 إلى 1930، فخلقت الحدث آنذاك حين دعت إلى الاهتمام بالعلاقات الداخلية للنص الأدبي، وحاول أعضاؤها تأسيس علم أدبي مستقل يدرس الخاصيات النوعية للموضوعات الأدبية، معتمدين المقاربة التزامنية سبيلا للكشف عن الطبيعة اللغوية للأدب، فعزلوا الأدب عن أي معطى خارجي يرتبط بالتاريخ أو الأفكار أو الفلسفة أو المجتمع، بينما ركزوا على دراسة الشكل الأدبي ودلالاته، ليؤكد "جاكبسون" أن "موضوع العلم الأدبي ليس هو الأدب وإنما الأدبية Littérarité أي ما يجعل من عمل ما عملا أدبيا".

وأمام هذا التوجه، وجد الشكلانيون في اللسانيات علما يمكنهم من استقصاء المظاهر اللغوية للنصوص الأدبية، وهذه المظاهر وحدها هي التي تشكل أدبية الأدب، وليست تلك المعطيات التي تأخذ بعين الاعتبار موقع النص في الواقع. وتتحدد أهم المنطلقات اللسانية ـ التي اعتمدتها المدرسة الشكلانية في ممارستها النقدية والنظرية الأدبيتين ـ في التمييز بين "اللغة الشعرية" و"اللغة اليومية"، وتناول قضية "الشكل والمضمون" والحسم فيها، بحيث إن اللغة اليومية تضطلع بأهداف تواصلية لا غير، بينما تركز اللغة الشعرية على القيمة الجمالية المستقلة للمكونات اللسانية. أما ثنائية الشكل والمضمون فقد رفضتها المدرسة، ورأت أن هذا المضمون يمثل هو الآخر شكلا ومفهوما لا يخرج عن حدود الشكل، ومن ثمة فالشكل الجديد حين يظهر ليست الغاية منه التعبير عن مضمون جديد، وإنما يعكس بديلا "يحل محل الشكل القديم، الذي يكون قد فقد صفته الجمالية"وعليه، فأي اختلاف في النصوص الأدبية يرجع أساسا إلى الاستعمال النوعي والمميز للغة، وهو ما يجعل من جمالية هذه النصوص مرتبطة على وجه الخصوص ببنيتها الشكلية.

وهكذا، استطاعت المدرسة الشكلانية الروسية قطع الصلة مع الدراسات المعيارية والخارجية التي سيطرت على النقد الأدبي، لتفتح توجهات جديدة في البحث امتدت إلى مجالي الشعر والسرد، وذلك من خلال ما قدمه كل من "أوسيب بريك" و "رومان ياكبسون" و"بوريس إخنباوم" و"توماشيفسكي" و"فيكتور شلوفسكي" و"فلاديمير بروب" ... لتكون بذلك أحد أهم المصادر التي أسهمت في تبلور المنهج البنيوي فيما بعد.

استنادا إلى ما سبق، يمكن القول إن المدرسة البنيوية برزت بوصفها توجها نظريا ومنهجيا، مثل تتويجا لجهود حركات سبقتها رفضت أي إسقاط خارجي على ما يشكل جوهر النص وأساسه، وكأنا بها ترفع شعار دراسة النص الأدبي في ذاته ومن أجل ذاته.

3/البنيوية في النقد العربي:

انتشرت البنيوية وهيمنت على النقد العربي خلال سبعينات القرن العشرين، فتلقفها النقاد العرب المحدثون مثلما كانوا قد أخذوا بغيرها من المناهج، مستفيدين من بعض الترجمات التي عرفت بها وبمميزاتها وطرائقها في تحليل النصوص الأدبية، فضلا عن بعض الدراسات التي أنجزها بعض النقاد من قبيل: يمنى العيد وكمال أبو ديب ومحمد برادة ومحمد بنيس وجابر عصفور وحميد لحمداني وعبد الفتاح كيليطو ... وغيرهم من النقاد الذين أغنوا الممارسة النقدية ودفعوا بعدد من الباحثين إلى إعادة قراءة ودراسة كثير من النصوص التي ظلت حبيسة الخزائن والمكتبات تنتظر من ينفض عنها الغبار ويعيد إليها الحياة من جديد.

ويعتبر كمال أبو ديب أبرز رواد المنهج البنيوي في العالم العربي، ذلك أنه أصل له وقام بتطبيقه على الشعر العربي في كتابين: الأول "جدلية الخفاء والتجلي، دراسة بنيوية في الشعر" طبعة 1981، والثاني عنونه بـ"الرؤى المقنعة، نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي" طبعة 1986. وخالدة سعيد في حركية الإبداع، أما على صعيد السرديات فيلقانا سعيد يقطين في القراءة والتجربة، ويمنى العيد في تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي.

ويرجع اهتمام أغلب نقاد العقود الأخيرة من القرن العشرين بهذا المنهج إلى إحساسهم بقصور المناهج النقدية السابقة عن تقديم ذاك التحليل المتكامل للنص الأدبي، فضلا عن الرغبة في الانخراط في التحولات التي يعرفها النقد الأدبي في ظل الاحتكاك بالحداثة الغربية، والتي شكلت البنيوية أبرز ملامحها. وهكذا، أسهم المنهج البنيوي في تجديد الخطاب النقدي السائد في العالم العربي، وبلورة رؤية نقدية جديدة فتحت معالم رحبة للخوض في كثير من النصوص والبحث في أنظمتها الداخلية.

رغم أن المنهج البنيوي كان من أقصر المناهج عمرًا، إذ لم يستطع الصمود فترة طويلة أمام ما واجهه من عقبات ومناهج، ولعل المنهج التفكيكي الذي حافظ على وجوده عند النقاد العرب محاولين توظيفه في التحليل الأدبي والولوج به في التعامل مع النص الديني.

4/ ملامح النقد البنيوي عند المسدي:

تأخذ البنوية أبعادا مختلفة عند المسدي، فهو يعالجها في كتابه "قضية البنيوية" من حيث بعدها التكويني والمعرفي، والمنهجي والنقدي، كما يطرح علاقتها بالأدب والنقد مقدما مجموعة من الاعتراضات كنماذج تقعيدية لدراسات سابقة، دون أن يصرح عن موقفه منها، فنلفيه في محطات كثيرة يقر بأنها ممارسة، إلا أنه يغرق في الجانب التنظيري دون ملامسة الواقع التطبيقي، ولعل الناقد يلح بصورة أو بأخرى على ضرورة فهم البنيوية كطرح معرفي قبل استثماره كمنهج نقدي.

تتمثل وظيفة الناقد البنيوي في المعاينة والوصف والإدراك، وهي مهمة منوطة بمعايير شكلية وموضوعية ، فالأدب هو نفسه موضوع علم الأدب، كما أن الشعر هو موضوع علم الفن الشعري، وهكذا اهتموا بالأصوات والإيقاع، بالصورة الفنية، والاستعارة والعروض في علاقتها المتبادلة، فإدراك الخصائص اللغوية دون الجمالية ينبع من الأهتمام بالأثر الأدبي ذاته، دون النظر في ظروفه الإنتاجية.

يُعرِّف المسدي المنهج البنيوي بأنه يعتزم الولوج إلى بنية النص الدلالية من خلال بنيته التركيبية.

سبق أن سئل المسدي ذات مرة عن رأيه في البنيوية، فقال بأنها منهج في تحليل النص وتأثيرها متصل بالنقد أكثر مما هو متصل بالإبداع، فضلاً عن أن البنيوية نوع نقدي جديد أصبح جزءاً من ثقافة المبدع، خصوصاً الشاعر، حيث يوحي له بأن يبني شعره على نسق مترابط، كأنما يستجيب للرؤية النقدية البنيوية، وهذه الظاهرة المتصلة بالإبداع حصلت فعلاً وبشكل صريح في مجال الرواية، لاسيما بعد تحول عدد من نقادنا إلى مجال كتابة الرواية بوعي نقدي مرتفع الدرجة.

من المراجع المعتمدة في المحاضرة:

-جان بياجيه، البنيوية، ترجمة عارف منيمنة وبسير أوبري، منشورات عويدات، بيروت، ط 4، 1985.

-إيديث كريزويل، عصر البنيوية، ترجمة جابر عصفور،دار سعاد الصباح، الطبعة الأولى، 1993.

-صلاح فضل :نظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى 1998.